۱۶۵۹۴

مجله	الازهر
تاریخ نشر	
شماره	
شماره مسلسل	
محل نشر	قاهرة
زبان	عربی
نویسنده	مصطفی محمد المدینی الطیر
تعداد صفحات	۴۱۱ - ۴۰۴
موضوع	نبی الهدی و منقذ البشریة
سرفصلها	اوصاف النبی (ص)
کیفیت	
ملاحظات	

دراسات قرآنية :

نبي الهدى ومنقذ البشرية

للأستاذ الشيخ مصطفى محمد الحديدي الطير

قال تعالى :
« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين »
سورة الانبياء — الآية ١٠٧

في صبيحة اليوم الأغر — الثاني عشر من ربيع الأول — ومن مشرق السنا والجلال ، أشرق جبين المصطفى الهادى على الربا والبطاح ، ليطوى بنور هداه ظلمات الوثنية والجهالة ، ويكشف للناس آفاق العلم والعرفان ، ويرشدهم الى مناهج الخير ومسالك السعادة فى الدنيا والآخرة ، ورحم الله العباس ابن عبد المطلب اذ يقول :

وأنت لما ولدت أشرقت الأر
ض وضاءت بنورك الأفق

فنحن فى ذلك الضياء وفى النو
ر وسبل الرشاد نخترق

وكان ميلاده الشريف بعد حادثة الفيل بخمسين يوما ، تلك الحادثة التى جعلها الله ارهاصا لنبوته ، وتكريما لقبلته ، حيث أرسل على غزاتها « طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل » فجعلهم كعصف مأكول » .

طيب منبته صلى الله عليه وسلم

كان صاحبه الذكرى العطرة رفيع الحسب ، عظيم النسب ، جليل الأرومة ، طاهر الأصول ، اذ تبرأ نسبه الشريف من سفاح الجاهلية ، ولم يعرف لوليد آخر مثل آبائه الغر الميامين ، فى عوالى القمم ومحاسن الشيم ، روى الامام على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم الى أن

ولدتني أمي وأمي ، ولم يصبني من سفاح أهل الجاهلية شيء » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم يلتق أبواي قط على سفاح ، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مهذبا ، لا تنشعب شعبتان الا كنت في خيرهما » .

وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال : قال صلى الله عليه وسلم « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

اليهود كانوا يتوقعون ميلاده

كانت الكتب السماوية تبشر بقرب مولد رسول من بني اسماعيل ، موطنه وادي فاران بمكة ، وقد ذكرت علاماته التي يتميز بها ، وفي جملتها أن بين كتفيه خاتم النبوة ، وكان اليهود يتوقعون ظهوره في الفترة التي ولد فيها ، فقد كانوا يعرفون حساب النجوم ، وقد ظهر لهم من حسابهم أنه يولد في ليلة معينة :

روى عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه قال : (كان بمر الظهران راهب يسمى عيصا من أهل الشام ، وكان يقول : يوشك أن يولد فيكم يا أهل مكة مولود تدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه ، فكان لا يولد مولود الا ويسأل عنه ، فلما كانت صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج عبد المطلب حتى أتى عيصا ، فناداه فأشرف عليه ، فقال عيصا : كن أباه ، فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه يوم الاثنين ، ويبعث يوم الاثنين ، ويموت يوم الاثنين ، ثم قال : فما سميته ؟ قال محمدا ، قال : والله لقد كنت أشتهي أن يكون ذلك المولود فيكم يا أهل هذا البيت بثلاث خصال ، أنه طلع نجمه البارحة ، وأنه ولد اليوم ، وأن اسمه محمد » .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (كان بمكة يهودي يتجر

فيها ، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا معشر قريش ، هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ قالوا لا نعلمه ، قال : ولد الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف الفرس ، فخرجوا باليهودي حتى أدخلوه على أمه ، فقالوا اخرجي لنا ابنك ، فأخرجته ، وكشفوا عن ظهره فرأى تلك الشامة ، فوقع اليهودي مغشيا عليه ، فلما أفاق قالوا : مالك ويلك ؟ قال : ذهبت النبوة من بني اسرائيل) أخرجه الحاكم .

وهذه العلامة التي تحدث عنها اليهودي هي خاتم النبوة الذي بين كتفي الرسول صلى الله عليه وسلم ، أخرجه البخاري في صحيحه بسنده أن هذا الخاتم كان كزر الحجلة ، وأنه كان يتم مسكا ، أي تخرج منه رائحة مسك بقدرة الله تعالى .

العالم قبل مولده الشريف

كان الناس قبل مولده صلى الله عليه وسلم يتخبطون في الظلام ، ويعيشون في الأوهام ، ويقتسمون الضريح والرقوم ، ويحيون حياة الدواب والسوائم ، وكانت الأوثان تقدس في المعابد والبيوت وتقدم لها القرابين ، وتراق في مذابحها النسائك ، وما لك لتعجب أن يصنع الناس آلهتهم بأيديهم ، ثم يخروا لها ساجدين ، فكيف استساغوا أن يعبدوا ما صنعته أيديهم ، والآلة يخلق غيره ولا يخلقه سواه .

إنك لتعجب أن يتضرعوا اليها حين شح الأمطار ، راجين منها أن تجعل الزرع تروى وديانهم ، حتى ينبت الكلأ وترعى الماشية ويشربوا من عذب مياهها .

وانك لتدهش أن يستنصروها في الحروب ، ويستشفوا بها اذا سقمهم السقام ، ويسترزقوا بدعائها ان ضاق بهم الرزق ، مع انها عودتهم ألا تجيب لهم مطلبا ، ولا تحقق لهم أملا وصدق الله تعالى اذ يقول : « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » ويقول : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » .

لقد كان عابدوها يقيمون بأنفسهم الحجة على ضعفها ، فانهم كانوا يتركونها ويدعون القادر العليم اذا اشتدت عليهم المحن ، لشعورهم بعجزها عن تلبية دعائهم ، لكنهم كانوا يعودون الى تقديسها بعد أن يكشف الله ضرهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة النحل : « ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » ويقول في سورة الاسراء « واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا » وكانت الخمر أم الكبائر شرابهم المفضل ، يدفنون في سكرتها همومهم ، ويبردون بها عبثهم ونزقهم ، وينثرون في نشوتها هذرهم ومجونهم ، وما فطنوا الى أنهم حين يعاقرونها يفتكون بعقولهم ويحطمون ارادتهم ، ويقضون على كبودهم وأعصابهم ، وينفقون أموالهم في ضررهم ..

وكانت الدعارة فاشية بينهم ، وبخاصة اماؤهم ، وكانوا يقيمون لهم خياما خارج دورهم يتشاهن فيها آثموهم ، وما كانوا يرون عيبا في أن يجعلوا أعراضهن مرتزقا لهم .

ولما أرادت قريش جمع المال لبناء الكعبة ، طلب رؤساؤهم أن لا يكون مال حصل عليه من يقدمه من اثم بغي — راجع حديث عائشة في كتاب النكاح من البخاري ، فقد تحدثت فيه عن أنكحة الجاهلية ومآثمهم فيها .

وكانت المظالم منتشرة ، فالقوي يستبد الضعيف ويسخره ، ويتخذ منه دابة ذلولا ، فلا يرعى فيه انسانية ، ولا ترحمه به شفقة .

وكانت الحرب سجالا بين القبائل فكم من قبيلة أفنتها قبيلة ، وكم من فصيلة طحنتها فصيلة ، وكان يسيطر على العالم أمتان — الفرس والرومان — يتنازعان فيه على السيطرة والسلطان ، ويتنافسان في الظلم والطغيان .

وكانت السجايا الكريمة كاسدة البضاعة ، والأخلاق الذميمة رائجة بين الناس — الى غير ذلك من المفاسد

فكان من الحكم البالغة أن يبعث الله خاتم النبيين ليقضي على تلك المفاسد وينشر الهدى بين الناس ، حتى ينذروا ما هم عليه من الانحلال والانحراف في العقيدة والسلوك .

نشأة الرسول صلى الله عليه وسلم

ولد المصطفى صلى الله عليه وسلم يتيما ، فقد مات أبوه عبد الله وهو في بطن أمه ، ثم فقد أمه وسنه خمس سنين وذلك حين عادت به من زيارة أخوال أبيه من بني عدي بن النجار فلحقتها منيتها بالأبواء وهي في طريقها الى مكة ، روى الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت : شهدت آمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم في علتها التي ماتت بها ، ومحمد صلى الله عليه وسلم غلام يفع ، له خمس سنين عند رأسها ، فنظرت الى وجهه وقالت أبيات شعر ثم قالت : كل حي ميت ، وكل جديد بال ، وأنا ميتة وذكري باق وقد تركت خيرا وولدت طهرا) الخ .

وقد نشأ صلى الله عليه وسلم في كفالة جده عبد المطلب زعيم قريش منذ ولد ، ثم لم يلبث أن توفي وكانت سنه حين مات جده ثماني سنين ، فكفله عمه أبو طالب الذي آلت اليه زعامة قريش .

ومع هذا اليتم المتابع فقد نشأ صلى الله عليه وسلم بعيد الهمة عزوفا عن صغائر الأمور ، سامي النفس رصين التصرف رفيع الخلق ، بعيدا عن صغار الأطفال وسذاجة تصرفهم ، ولا عجب في ذلك فقد نشأ في مدرسة الرحمن الرحيم ، تصنعه العناية الالهية ليكون خاتم المرسلين ؛ وقد كانت آثار هذه العناية بادية عليه في أمره كله ، ومن ذلك ما أخرجه ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال : (قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت قريش يا أبا طالب : أقحط الوادي وأجدب العيال ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب وألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ الغلام بأصبعه وما في السماء قزعة (١) فأقبل السحاب من هاهنا

(١) اى قطعة من السحاب ، وهي واحدة القزع .

وها هنا ، وأغدق وأغدودق ، وانفجر له الوادى ، وأخصب النادى والبادى) وفى ذلك يقول أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة الأرامل (١)

ثم سافر الى الشام مع أبى طالب مرتين : إحداهما فى الثانية عشرة من عمره ، والثانية فى الثامنة عشرة وقد حدثت له ارهاصات وكرامات عجيبة فى الرحلتين ، كتظليله وحده بالغمام لا يشركه فيه غيره من الركب ، وتسليم الجمادات عليه ، وغير ذلك ، ولما رآه بحيرا الراهب احتضنه وقال: هذا هو النبى الذى بشرت به التوراة ، وأوصى عمه أن يحافظ عليه من اليهود .

وقد تجلى من صفاته فى نشأته الصدق والأمانة ورجاحة العقل ، حتى عرف بذلك بين الناس ، فأصبحوا يلقبونه بالأمين ، فعهدت اليه خديجة بتجارة لها فى رحلة الى الشام ، فسافر ومعه غلامها ميسرة ، فرأى منه فى تلك الرحلة من كريم الشمائل وعظيم الخوارق مالم يشاهد مثله ، فلما عادا بالتجارة الرابحة أخبر ميسرة مولاته خديجة بما رآه من عجائبه ، فخطبته الى نفسها وتزوجته ، وأنجب منها أولاده عدا ابراهيم فمن مارية القبطية .

موقف قريش من بعثته

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأربعين بعثه الله للناس بشيرا ونذيرا ، ومع أن قريشا يعرفون تاريخه المجيد فانهم أعرضوا عما دعاهم اليه من توحيد الله وشريعته وأغروا به سفهاءهم ، حسدا له ، واستمساكا بما ألفوه من عبادة الأوثان تقليدا للآباء دون حجة ولا برهان ، وكانوا يقولون « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » .

وقد مكث الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى الرشد والهدى

(١) الثمال بمعنى الملجأ ، والمراد بالأرامل المساكين من رجال ونساء ، وأكثر ما يطلق على النساء ، وعصمته للأرامل منعه لهم من الضياع .

ثلاثة عشر عاما ، فلم يؤمن به فيها سوى عدد قليل من الرجال والنساء ، ولعل موقفهم هذا من حكم الله تعالى ، فانهم لو سارعوا الى الايمان به لقال العرب : هؤلاء قوم أرادوا أن يملكوا العرب ، فدفعوا رجلا منهم فادعى النبوة ، ليكون ذلك وسيلة الى سيطرتهم على الناس ، وحينئذ ينفرون من دعوته ولا يقبلون عليها .

فلذلك جعل الله موقف قومه منه سلبيا ، وادخر له قوما يفتدونه بالمهج والأرواح — وهم أهل المدينة ، فهيأ لقاءهم به فى مواسم الحج قبيل الهجرة فشرح الله صدورهم فآمنوا فى شغف ولهفة ، وبايعوا الرسول على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم ، ثم هاجر اليهم وتبعه مسلمو مكة ، وهناك وجدوا أنصار المدينة قد نشروا الاسلام فى ربوع المدينة بمعاونة مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم مبعوثى الرسول صلى الله عليه وسلم اليهم ، وهناك آخى النبى بينهم وبين المهاجرين ، فصنعت هذه المؤاخاة العجب العجاب من نشر دين الله فى الجزيرة العربية ، وسقوط دولة الوثنية فى مكة ، ودخول أهلها فى الاسلام والحمد لله رب العالمين .

يمن اليتيم ورحمته للعالمين

من حكم الله السامية أنه اختار خاتم النبيين يتيما ، ليشعر بآلام اليتامى النفسية ، ويعظم احساسه بحاجتهم الى العطف والرعاية ، ويسمو اكباره لفضل الوالدين ، فلذلك كان معنيا بأمر هؤلاء وأولئك بعد أن شرفه الله بالرسالة ، وقد أيده الله بوحيه فى هذه المواطف الرحيمة فأمعن فى الحث على العناية بهم ومن ذلك قوله فى شأن اليتامى « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولاتأكلوا أموالهم الى أموالكم انه كان حوبا كبيرا » وقوله « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » وقوله « وقولوا لهم قولا معروفا وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » ومن ذلك قوله فى شأن الوالدين « وبالوالدين إحسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما » واخفض لهما

جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » .

وقد امتد حنانه الى كل فقير وضعيف وحيوان ، وبلغ من رحمته بالفقراء أن جعل أهل الحي الذي يبيتون فيه جياعا آثمين ، وبلغ من عطفه على العامل الضعيف أن أوصى بأن يعطى أجره قبل أن يجف عرقه .

وبلغ من عنايته بالحيوان أنه قال : « في كل ذي كبد حراء صدقة » وقال « دخلت امرأة النار من أجل هرة حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش (١) الأرض » .

وقد اشتمل الكتاب الذي أنزله الله عليه — القرآن العظيم — على تشريعات فيها من التكافل الاجتماعي ما يعتبر مفخرة لدين الاسلام .

ومن حكم الله تعالى أنه اختاره أميا ، ليكون العلم الذي حواه القرآن معجزته الكبرى ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

كفاك بالعلم في الأمي معجزة
في الجاهلية والتأديب في اليتم

وما أعظم ما اشتمل عليه هذا السجل الالهي من فنون العلم ، فهو في القمة من الفصاحة والبلاغة ، وفي الذروة من الصدق في أخبار الماضين الى جانب ما حواه بين دفتيه من أعدل قواعد التشريع وأعلى مناهج الأخلاق ، وأسمى أساليب التربية والتأديب ، وكل ذلك أو بعضه لا يستطيع أن يأتي به الجم الغفير ممن وصلوا الى أعلى الثقافات ، فكيف يستطيع أن يأتي به أمي نشأ في أمة جاهلة غارقة في الوثنية والتفاوز والتلاعب ، وغشيان المآثم والمعايب ، ان ذلك يدل بلا أدنى ريب على أنه من وحي الله وليس من صنع البشر ولا غيرهم من الجن ، وصدق الله تعالى اذ يقول : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » لقد نادى القرآن بتوحيد الخالق ، وأرشد العقول الى أنه « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » وبين ضعف آلهتهم ، وصور ضعفها بما لا غاية وراءه ، حيث يقول « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم

(١) خشاش الأرض حشراتها .

الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » وهدانا الى المثل العليا من مكارم السلوك ونفرهم من المفاسد والمظالم بأوضح بيان ، وأجل ارشاد ، فأفاقت العقول من سكرتها ، وصحت من سباتها واتجهت نحو العقيدة المستقيمة ، وتلاشى الشرك أو كاد .

وقد أجبر منطقه السديد أصحاب عقيدة التثليث على محاولة توحيد ثالوثهم ، فزعموا أن الثلاثة إله واحد وما يغنيهم هذا فتيلا .

وحوى هذا الكتاب العظيم من قواعد التشريع ما يصلح لكل اقليم ولكل زمان ومكان الى أن تقوم الساعة ، وقد استطاع الفقهاء أن يستنبطوا من نصوصه بمعونة السنة النبوية ، موسوعات في الفقه الاسلامي اشتملت على الكثير من فروع العبادات والمعاملات ، والزواج والطلاق ، والعفو والعقاب وغير ذلك ، ولو أن فقهاء جيلنا درسوا فقههم وفتاواهم وأقضيتهم ، لأخرجوا للناس قوانين تريح قلوبهم وتستهدم وتحل مشكلاتهم ، وتخرس ألسنة الدعاة الى التجديد والانحراف عن الفقه الاسلامي ، فقد بلغت فتاوى كل امام مئات الألوف ، ولم يتركوا بابا الا طرقوه ، ولا مشكلة يمكن أن تطرأ على المجتمع الاسلامي الا حلوها .

ومن أمثلة موسوعاتهم كتاب الحاوي للفقيه الشافعي الامام الماوردي وهو كتاب مخطوط يقع في نحو عشرين مجلدا ، وكذلك فعل الامام السيوطي وغيره من أئمة الفقه على اختلاف مذاهبهم .

ولقد فتح القرآن والسنة أبواب العلم على اختلاف فروعه ، فانتشر في البلاد التي شع فيها نور الاسلام العلم والحضارة ، فعز أهلها بعد ذل وعلموا بعد جهل ، واجتمعوا بعد تفرق ، وآمنوا بعد خوف ، وكل ذلك بفضل رسالة هذا الرسول العظيم ، الذي تربى في مدرسة الله وكلاءته ، فصلوات الله وسلامه عليك يا منقذ الانسانية من المهالك ويا من أرسلك ربك رحمة للعالمين .

مصطفى محمد الحديدي الطير